في ذمة الله :

زعيم الباكستان

للشيخ محمد رجب البيومي

كانت وفاة القائد الأعظم محمد علي جنه مصيبة فادحة سالت لها الدموع ، وقد تلقيت نبأها الفاجع في حيرة بالغة ، ودهشة محزنة ، وأخذت أتساءل عن مصير دولته الفتية بعد أن فقدت بطلها العظيم ، وربانها الحاذق ، كما استعرضت — في كآبة قاسية — صوراً من الآمال المشرقة التي يتلمس العالم الإسلامي تحقيقها على يد الباكستان ، مذ أصبحت دولة مستقلة تسعى إلى تحقيق الوحدة الإسلامية ، وتشمر بما يشمر به أبناء العقيدة المحمدية في جميع الآفاق .

ولقد أتيح لي أن أشاهد الفقيد الكبير أثناء زيارته الأخيرة للقاهرة ، فراقني منه هدوءه المطمئن ، ووقفت على صورة كاملة من مزاياه الطيبة التي تنطق بها ملامحه وإشاراته ، كما تتبعت في كثير من الاهتمام نشاطه السياسي ، وقرأت عن كفاحه واستبساله ما زادني اجلالا له في حياته ، وألهب قلبي حزناً عليه غب وفاته .

ولا يقدّر مصيبة الإسلام في زعيم الباكستان غير من ألم بتاريخه إلماماً دقيقاً ، فقد وهب ربه الله نفسه للدفاع عن حقوق طائفته المبعثرة المتناثرة ، فجعل منها قوة متشابكة متساندة تصل إلى أهدافها في جرأة ، وتفصح عن رأيها في قوة وإيمان ، وكانت — منذ أمد بعيد — هدفا تتعاوره السهام الخاتلة من كل جانب ، وطعمة تتزاحم عليها الأفواه الجشعة من كل صوب .

وتاريخ جنه يرتبط أشد الارتباط بتاريخ الأمة الإسلامية في الهند ، فإذا كتب كاتب عن الزعيم الراحل فإنما يتحدث عن مائة مليون من المسلمين كانوا أبادين في مختلف الجهات فوهبهم الله قائداً قوياً يجمع الشمل ويلم الشعث حتى توحدت الكلمة على يده ، ودنت الغاية المأمولة بجهوده . وسنعرض بإيجاز للحركة الإسلامية في الهند وأثر جنه في نجاحها الباهر ، وحسبه أن كان التعريف به مقروناً بسيرة أمته ، فكفاحها كفاحه ، وتاريخها تاريخه .

كان حزب المؤتمر الوطني في الهند ينظر إلى المسلمين بعين الازدراء والمقت فهم أقلية لا يحسب لها حساب في الأمة الهندية ، ولئن اصطبغ الحزب بالصبغة السياسية فقد كان أعضاؤه المتعصبون لا يتناسون ما يدب في صدورهم من البغض للمسلمين ، فهضموا حقوقهم الأكيدة ، وأشاعوا عنهم الفتريات الآفكة ، فكانت الفتن الأهلية تندلع في كل وقت مستمدة وقودها المتأجج من الأقلية المهضومة ، والحاكم الانجليزي لا يتوانى عن إشعال الضرام ما استطاع ، ليقيم دعائمه الاستعمارية على الخلاف الديني والنزاع الطائفي ، ولم يجد المسلمون بداً من تأسيس رابطة جامعة تفند مفتريات الهندوكيين ، وتقوم بما تراه من الإرشاد والتوجيه

كانت الطائفة الإسلامية تضم نخبة ممتازة من الأحرار الأمناء ، وكان الفقيد العظيم يبذل لها ما يملك من فكر ثاقب ، وقلب جريء . ولا غرو فقد تثقف ثقافة عالية ، ونال شهادة الحقوق من انكلترا ، ثم تقلد مناصب قضائية أبرزت جانباً كبيراً من مواهبه وكفايته ، واشتغل بالمحاماة فطارت شهرته وذاع صيته . هذا إلى جانب خدماته السياسية المجيدة ، تلك التي جعلته — فيما بعد — قائد أمة ، وزعيم دولة ، ورجل تاريخ ، وصاحب خلود .

كانت نفس جنه غنية بكثير من التسامح والود فلم يشأ أن يقطع صلته بحزب المؤتمر بعد تكوين الرابطة الإسلامية ، ولكنه ظل منتمياً إليه ليقوم بدور السفير في تسوية ما يجد من تعارض الآراء ، واختلاف وجهات النظر . ولعله كان يطمع بتسامحه أن يكون مثلا ملموساً لأعضاء المؤتمر ، كيلا يفرطوا كثيراً في المغالاة والتعصب ، ولقد وفق بادىء الأمر في سفارته توفيقاً محموداً ، حيث عقد اتفاق «لكنو» سنة ١٩١٦ وبمقتضاه قدمت من الحزبين مذكرة مشتركة إلى الحكومة البريطانية تطلب منح الهنود قسطاً من الحكم الذاتي .

ولقد ضاق الزعيم ذرعاً بتعصب الهندوكيين ، ويئس من اقناعهم بالعدول عن التعسف الشنيع فاستقال من حزب المؤتمر وهيأ نفسه للعمل في طريق شاق تكتنفه المخاوف والمكاره ،

حيث كانت الطائفة الإسلامية تتلقى ضربات مختلفة من عدة جهات : فالمؤتمر – بأعضائه المتطارسين – يؤلب عليها النفوس ، وحزب « مهاسبها » الذى ألف لمحاربة الرابطة الإسلامية يزاول مهامه الإجرامية فى بربرية وحشية ، فكانت المذابح الهائلة تسيل بالدماء على أيدى جنوده المتوحشين ، وقد أعلن فى غير مبالاة أن المسلمين ليسوا من الهند ، فهم دخلاء يجب أن يرحلوا إلى البلاد العربية التى تعترف بدينهم الإسلامى . ولا نبالغ إذا قلنا إن الأرواح التى أزهقت فى الهند كانت من جراء هذا الحزب البربرى الهائج ، ولولا ثبات الرابطة الإسلامية وصمودها العجيب أمام أعدائها المتوحشين ، لتقلص ظل الإسلام فى هذه البلاد . ولعل من الأدلة القاطعة على بربرية حزب « مهاسبها » أن قاتل غاندى – وهو شاب مثقف راق – كان منتمياً إليه ، فلم يرقه تسامح المهاتما وموافقته على تقسيم الهند إلى دولتين ، فألف مع بعض أعوانه عصابة لاغتيال زعماء المؤتمر ، واحداً بعد واحد . فإذا كان هذا شعورهم المجرم نحو إخوانهم الهندوكيين ، فمن يحصى النكبات الفادحة التى جرها هؤلاء على المسلمين !

ولقد انتهز حزب المؤتمر نجاحه فى الانتخابات التى تلت دستور سنة ١٩٣٥ فأعلن أنه يمثل الأمة أتم تمثيل وتقاضى عن مائة مليون من المسلمين أفيح تقاض ، وراح يروج لنفسه بدعاية براقة خادعة ، مدعياً أن الزمام السياسى قد أصبح فى يده وحده ، ولكن الزعيم الأعظم محمد على جنه وقف فى وجهه باسم الرابطة الإسلامية ، وطاف على قدميه فى أنحاء المدن الإسلامية بالهند ، فنبه العيون وأسمع الآذان ، ودعا إلى توحيد الكلمة بين المسلمين ورسم أمامهم ما يتهددهم من المخاطر ، وخاصة أن الحكومة الجديدة قد رفضت رفضاً باتاً أن يشترك فيها عضو واحد من المسلمين او كثرت الفتن الداخلية كثرة أشعلت الأحقاد وألهبت النفوس ، فعرف المسلمون تمام المعرفة ما يدبر لهم من الكيد والبلاء ، بينما أخذ أعداء جنه يتهمونه بمساعدة الإنجليز ، كما أسرفوا فى التشهير بزعماء المسلمين إسرافاً لا حد له . ولم تمض مدة يسيرة حتى كان القائد الأعظم قد وفق فى مهمته أكبر توفيق ، فوافق حزب الرابطة سنة ١٩٤٠ على اقتراحه بصدد مشروع الباكستان ، وأخذ يعمل على الوصول إليه من كافة الطرق ، وقد تحسن موقف الرابطة كثيراً حين جاءت الانتخابات الجديدة سنة ١٩٤٦ ففاز المسلمون بجميع المقاعد المخصصة لهم فى المجلس التشريعى ، وأسقط فى يد المؤتمر الهندوكى حيث بان للعالم أجمع أنه ليس وحده الذى يمثل الهند ، وأصبح مركز الرابطة يسمح لها أن تستقل بالبلاد الإسلامية مما ترتب عليه شطر الهند إلى دولتين مستقلتين ، فارتفع العلم الإسلامى فى مملكة وليدة وتحقق أمل بعيد كان يظنه الجميع سراباً يلوح فى الصحراء .

لقد كان محمد على جنه زعيما من طرازفريد ، لأن جميع الزعماء ينشأون فى أمم مهيأة معروفة فيوجهونها إلى الطريق السوى ، ولكن القائد الأعظم قد أوجد أمة من العدم ، وسهر على نموها السريع فترعرعت فى حقبة وجيزة ، ولافت من الأعاصير السياسية ما كاد يزعزعها عن مستقرها لولا حكمة القائد ونظره البعيد

أما أخلاق الزعيم الباكستانى فقد كانت موضع الاجلال من أعدائه ومعارضيه إذ كان يعمل فى وضح النهار ، ولم تسمح له مروءته ودينه أن يحيك الدسائس فى الظلام لمناوئيه ، وقد رزق من المحاماة مالا طائلا ، فلم يضن به فى سبيل غايته السياسية ، كما كان يعتنى اعتناء تاماً بمظهره ، فصارت أناقته مضرب المثل ، واقتدى به المترفون فى انجلترا والهند ، ثقة بذوقه الأنيق . ولقد كان شديد الثقة بنفسه فذهب إلى انجلترا واحترف المحاماة فيها أربع سنوات كاملة بين أساطين القانون وأعلام التشريع ، فكانت قضاياه العديدة تكلل بالنجاح .

أى زعيم الباكستان ! لقد أديت رسالتك فى الحياة خير أداء ، وقطفت بيدك الثمرة المشتهاة ، فنم قرير العين بما قدمت لنفسك من أجر عند الله ، وخلود فى صحائف التاريخ .

سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج

(الكفر الجديد) محمد رجب البيومي

اطلب كتاب

مبادىء فى القضاء الشرعى